العَفو عند المقدرة

الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقُضون الميثاق يجدون الجزاء من الله، فوزاً وفتحاً ونصراً.

لقد عقد الرسول ﷺ مع قريش صُلحَ الحديبية، وبرَّ ووفَّى. وتلك شيمتُه وهذا خُلُقُه. لقد ردَّ أبا جندل الذي جاء فارًّا بدينه من أذى قريش، وأمره بالصبر والاحتساب، وفاءً بالعهد، وقال: « **إنا عقدنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهدَ الله، وإنا لا نَغْدِرُ بهم** » كما ردَّ أبا بصير الذي وصل إلى المدينة فارًّا بدينه من أذى قريش، وأمره بالصبر والاحتساب، وقال: « **يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر** ».

هذا خُلُقُ رسول الله ﷺ في الوفاء بالعهد.

ولكنَّ أمرَ قريش كان على النقيض من ذلك، فلم يمض على صُلحِ الحديبية عامان حتى نقضت عهدَها بما استباحت من دمِ خُزاعة التي دخلت في عقْدِ رسول الله ﷺ وعهدِه.

• في موكب فتح مكة:

ونحن الآن نود أن نكون في موكب رسول الله وهو يمضي لفتح مكة.

نرى موقفه من أولئك الذين قاتلوه وأخرجوه وتآمروا عليه.

نراه في موكبه الظافر وجيشه المنتصر متواضعاً لله، تكادُ جبهته تلتصق بدابته؛

تواضعاً لله الذي أعزَّه ونصره. وهو يردُّ من يقول: اليوم يومُ الملحمة، فيقول: « **لا اليوم يوم المرحمة** »

دَعْني أذكرُ لَكَ أمراً واحداً، لترى كيف كان القرآن خُلُقاً لرسول الله ﷺ يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

لعلك تذكر في أعقاب بدر ما كان من صفوان بن أمية وعمير بن وهب عندما جلسا في الحِجْر يذكران مُصاب قريش في بدر، ويقول صفوانُ - وقد ذكر القتلى من قريش -: والله ما في العيش بعدهم خيرٌ. واتفقا معاً على أن يذهب عميرُ بنُ وهب إلى المدينة لقتل رسول الله ﷺ، على أن يقوم صفوانُ بسَداد دَيْنٍ لعُمير، وأن يَعُول أولاده.

وأخذ عميرٌ سيفه بعد أن شُحذَ له وسُمَّ، وانطلق حتى قدِمَ المدينة، فبينا عمرُ ابن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوِّهم، إذْ نظر عمرُ إلى عُمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف، فقال: هذا الكلب عَدُوَّ الله عميرُ بن وهب، والله ما جاء إلا لشر. ثم دخل عمرُ على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدوُّ الله عميرُ بن وهب قد جاء متوشحاً سَيْفَه. قال: « فأَدْخِله عَلَيَّ » قال: فأقبل عمرُ حتى أخذ بحِمالة سيفه في عُنقِه، فلبَّبه بها. وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: أدخلوه على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث؛ فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه الرسول ﷺ قال: « **أرْسِلْه يا عُمر، ادْنُ يا عمير** » فدنا وحيَّا بتحيةِ أهل الجاهلية. فقال الرسول ﷺ: **قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير. بالسَّلام، تحيةِ أهل الجنة.**

« **ما جاء بك يا عُمير ؟** » قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه.

قال: « **فما بالُ السيف في عنقك ؟** » قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ! قال الرسول ﷺ: « **اصْدُقْني، ما الذي جئتَ له ؟** » قال: ما جئت إلاَّ لذلك.

قال: « **بل قعدتَ أنت وصفوانُ بنُ أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحابَ القَليب من قُريش، ثم قلت: لولا دَينٌ عليَّ، وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً. فتحمَّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينَك وبينَ ذلك** ».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كُنَّا - يا رسول الله - نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينـــزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضُرْه إلا أنا وصفوان، فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فأمر الرسول ﷺ الصحابة أن يفقهوه في الدين ويُقرؤوه القرآن، ويُطلقوا له أسيره..

وصفوان بن أمية في مكة ينتظر خبر عُمير ويسألُ الركبان.. فلم يجئه الخبرُ الذي كان يرجوه من قَتْل الرسول ﷺ وإنما جاء الخبر بإسلام عمير بن وهب.

فلما جاء الرسول ﷺ لفتح مكة فرَّ صفوانُ إلى جُدة، ليركب منها إلى اليمن خوفاً من العقاب والجزاء، فجاء عميرُ بن وهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا نبي الله، إن صفوان بنُ أمية سيدُ قومه، وقد خرج هارباً منك، ليقذف نفْسَه في البحر، فأمِّنْه، صلَّى الله عَلَيْكَ، قال: « **هو آمن** ».

قال: يا رسول الله فأعطني آيةً يعرف بها أمانَك، فأعطاه رسولُ الله عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عميرُ حتى أدركه وهو يريد أن يركبَ البحر، فقال: يا

صفوان، اللهَ اللهَ في نفسك أن تُهلِكَها، فهذا أمانُ رسول الله قد جئتك به. قال: ويحك. اغرْب عني، فلا تكلّمني، قال: أيْ صفوان، فدَاك أبي وأمي. أفضلُ الناس، وأبرُّ الناس، وأحلمُ الناس، وخيرُ الناس، ابنُ عمك، عِزّه عِزُّك، وشرفُه شرفُك، ومُلكه مُلْكُكْ. قال: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلمُ من ذاك وأكرَم. فرجع معه، حتى وقفَ به عند رسـول الله ﷺ، فقال صفـوان: إن هـذا يزعُم أنك قد أمّنتي: قال: « **صدق** » قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: « **أنت بالخيار فيه أربعة أشهر** » وأسلم صفوان وكانت زوجتُه قد أسلمت من قبل. وقد رأى العفو من رسول الله كما رآه غيرُه ممن كادوا لرسول الله وتآمروا عليه.

كان خُلُقهُ القرآن، يرضى برضاه ويسخط بسخطه. ألم يقل القرآن الكريم:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1]

اللهم أدِّبنا بأدب القرآن، وخلّقنا بخُلُق رسول الله، حتى نكون مع ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾[2]

✿✿✿

(١) الأعراف : ١٩٩.

(٢) النساء : ٦٩.

مع الرسول ﷺ في العشر الأواخر من رمضان:

لقد اختُصَّ رمضان من بين الشهور بحفاوة عظمى؛ حيث أُنزل فيه القرآنُ هُدى للناس وبينات من الهُدى والفرقان.

ورمضانُ بما أُنزل فيه – جديرٌ بكل حفاوة وتقدير.

إن للأيام ذاتِ الأثر في تاريخ الناس شأناً يُذكر، وهم يعبرون عن تقديرهم لما وقع في هذه الأيام بأساليب متنوعة، يفعلون ذلك كلما تكررت الأيام؛ ليوجهوا أنْظار الناسِ إلى الحدث الذي عمل في تاريخهم وأثَّر في حياتهم.

ولا أجد حَدَثاً غَيَّر مجرى التاريخ البشري في مجال الفكر والاعتقاد، وفي مجال العمل والسلوك وفي مجال الروابط الإنسانية ونظره للإنسان، مثل ما فعل نزولُ القرآن الكريم على النبيِّ الأميِّ محمد ﷺ في شهر رمضان.

ولذا كانت الليلةُ التي اختُّصت بهذا الشرف هي الليلة المباركة، كما قال الله ﷻ: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾[1]

وهي ليلة القدر ذاتُ الشأن العظيم والفضل الجليل ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥ ﴾[2]

ينال خيرها الذين تفتَّحت قلوبُهم للوحي الذي يترل فيها، وانشرحت صدورُهم بطاعة الله وابتغاء مرضاته؛ لذلك تراهم لا يَغْفُلون في شهرها، ولا ينامون عنها.

---

(١) الدخان : ١-٣.

(٢) القدر : ٢-٥.

والمؤمنون في تقديرهم للأيام وما يقع فيها، لا يفعلون مثل ما يفعل الأقوام الذين يعرفون أعيادهم لهواً وعبثاً، وشراباً وطرباً. بل يلتزمون أدباً خاصًّا وسلوكاً خاصًّا وعبادةً أُمروا بها. فلا صخبَ ولا عبث، بل اتجاه بالنفس إلى الله طائعةً، خاشعةً، تنشدُ الخير وتطلب السلام وترجو المغفرة.

إنهم بذلك يسلكون طريق نبيهم ويتخلّقون بخُلقه.

كان الرسول ﷺ إذا أقبلت العشرُ الأواخر تهيأ لها، واجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها.

روى مسلمٌ عن عائشةَ – رضي الله عنها –: « كان رسول الله ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مَا لا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ » [1]

وروى البخاري عن عاشة – رضي الله عنها – قالت: « كان النبي ﷺ إذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ » [2] أي: اعتزل النساء وجَدَّ في العبادة، (وأحيا ليله) أي بالطاعة والذكر.

ولا شك أن ذكر الله للوقت حياة، وللمكان حياة. فالزمان الذي يُحييه الإنسان بذكر الله شاهدٌ بالخير، طيبُ الأثر، حيٌّ بالآثار والنتائج التي يحققها للإنسان في جميع مراحل سيره. وكذلك المكان « **لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ** » [3]

إن من حق البيوت لكي تنعم بالحياة أن تحظى بقيام ليلٍ وطِيبِ ذكرٍ وحُسْنِ موعظةٍ، وخالصِ مودَّة.

كذلك كان الرسول ﷺ يُوقِظُ أهله، **فلم يكن ﷺ إذا بقي من رمضان عشرةُ أيام يَدعُ أحداً من أهله يُطيقُ القيامَ إلاَّ أقامه.**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

أخي القارئ الكريم:

إنك تلتمس ليلة القدر في العشر الأواخر، كما ورد في الحديث المتفق عليه عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ** [١] **فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَقُولُ: تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ** » [٢]

فتهيأ – أخي المسلم – لهذه الليلة، واجتهد أن تكون حيث يحب الله لك من صادق القصد وحُسن العبادة، اتل كتاب ربك وأنت مُقبل عليه، عازم على طاعة أمره واجتناب نهيه؛ فإن حياتنا الدنيا سريعةُ التقضي والزوال، « **وإنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ** » [٣]

وما أجلّها ليلة. إنها خيرٌ من ألف شهر، ليلة خير من ثلاثين ألف ليلة. تعرَّضْ لها، وعش مع الوحي الذي نزل فيها، وأكثر من الدعاء والتضرع إلى الله.. روى الترمذي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلت يا رسول الله: « **أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَة لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا ؟ قَالَ: قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي** » [٤]

ما أسعد مَن يحظى بقيامها، وينعمُ بخيرها، ويطلب سلامها ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥** ﴾ [٥]

✿✿✿

---

(١) أي يعتكف.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) القدر : ٢– ٥.